الفصل الثالث

هجرة النبي — الفتن في المدينة — الوثيقة
١ — ١٠ هجرية (٦٢٢ — ٦٣٢ م)

المدينة

استقبل أهل يثرب « محمداً » صلى الله عليه وسلم وأصحابه المهاجرين استقبالا حماسيا منقطع النظير ، واستبدلوا اسم « يثرب » باسم مدينة « النبي » التي عرفت فيما بعد باسم المدينة على سبيل الاختصار . وتقول لنا الرواية العربية إن النبي (ص) لما استقر بها شيد فيها مسجداً من الآجر والتراب ، وسقفه بسعف النخيل . ومن المأثور أنه عمل أيضاً بيديه الكريمتين في بناء ذلك المسجد المتواضع الذي أخذ يبشر فيه بدين الفطرة الجديد ، كذلك لم يكتف بتعليم الناس عظمة الخالق ووحدانيته فحسب بل راح أيضاً يضع الدساتير الأخلاقية السامية ، ويبشر بالأخوة والبر باليتامى وأبناء السبيل .

وثيقة النبي

وفي تلك الآونة كان يسكن « يثرب » الأوس والخزرج وهما قبيلتان كان الخلاف قد استحكم بينهما منذ عهد بعيد ، فلم يلبث الرسول أن قضى على تلك البغضاء القديمة ، وأطلق على أهل المدينة الأصليين اسم الأنصار ، كما أطلق على المكيين الذين وفدوا معه اسم « المهاجرين » .

ولا يخفى أن العرب لم يكن لهم في ذلك الحين نظام أو قانون ، بل كانت الجزيرة تعصف بها ريح الخصومات والمنازعات ، وتعيث فيها الفتن والفوضى ، فأقدم محمد (ص) على وضع نظام ثابت للمدينة ، وأسس إدارة[1] قوية الدعائم

(١) وضع الرسول أساساً للحضارة الجديدة وتتلخص فيما روى عن علي بن أبي طالب أنه سأل رسول الله عن سنته فقال : « المعرفة رأس مالي ، والعقل أصل ديني ، والحب أساسي ، والشوق مركبي ، وذكر الله أنيسي ، والثقة كنزي ، والحزن رفيقي ، والعلم =

كما وضع الصحيفة التى قضى فيها على الفوضى والشحناء ، وساوى اليهود الذين كان يعيش منهم عدد غير قليل فى المدينة وضواحيها ، بالمسلمين فى الحقوق على أن ينصروهم على أعدائهم .

وفى هذه الظروف التى جئنا على ذكرها أصبح « محمد » (صلى الله عليه وسلم) لا داعياً للدين الجديد فحسب ، بل رئيساً أعلى للمدينة التى دعاه أهلها إلى العيش بين ظهرانيهم ، ووكلوا إليه حمايتهم ، فاتجه همه فى مبدإ الأمر إلى القضاء على الخصومات ، ولكن ما هى إلا برهة حتى سخط المكيون على أهل المدينة لإيوائهم الرسول وأتباعه الذين كانوا فى نظرهم شرذمة قليلة من الثوار ، واستحكم الخلاف بين الفريقين حتى نشبت أول معركة بينهما فى واد يقال له « بدر » على بضعة أميال من المدينة ، فانهزم المكيون شر هزيمة تاركين وراءهم عدداً غير قليل من الأسرى الذين أحسن المسلمون معاملتهم .

وقعة بدر

انقضت السنة الثانية فى هدوء تام ، فيما عدا مناوشات طفيفة قام بها أهل مكة على المدينة ؛ فلما كانت السنة الثالثة أغار « أبو سفيان » بن حرب بن أمية أعظم منافسى بنى هاشم على أطراف المدينة فى قوة كبيرة من قريش وحلفائها ، وكان المسلمون الذين تقدموا لصدهم قليلى العدد ، فنشب القتال بين الفريقين على سفح (جبل أحد) ومنى فيه المسلمون بهزيمة منكرة ، غير أن خسارة المكيين كانت فادحة بحيث لم يستطيعوا إعادة الكرة على المدينة فانسحبوا إلى مكة ، وأخذ اليهود الذين كانوا لا يزالون يقيمون فى المدينة وفى القرى المحصنة فى ضواحيها يثيرون الفتن والقلاقل حتى أصبحوا عنصراً خطراً على الدولة الناشئة ، كذلك كان نفر منهم يتجسس لحساب المكيين ، وكثيراً ما نجم عن مكائدهم

سنة ثلاث هجرية
٢٦ نيسان
٦٢٤ م

= سلامى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة » .

(المعرب)

ووشاياتهم إراقة الدماء ، فأمر النبي بإجلاء قبيلتين من تلك القبائل اليهودية وهما بنو قينقاع و بنو النظير وكانا يسكنان فى ضواحى المدينة .

وفى سنة خمس هجرية زحفت قريش فى عشرة آلاف رجل على المدينة ؛ ولما لم يستطع المسلمون أن يحشدوا أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل حفروا خندقاً أمام القسم المكشوف من المدينة ، واعتمدوا فى الدفاع فى الأقسام الأخرى على بنى قريظة ، وهى قبيلة يهودية بقيت على ولائها للمسلمين ؛ وكانت تملك عدة حصون فى جنوب المدينة غير أنها نقضت عهدها وانضمت إلى المكيين الذين كانوا يحاصرون المدينة ، ولكن النبى (ص) قاومهم مقاومة شديدة ؛ و يلوح أن العوامل الطبيعية كانت قد تضافرت مع المحصورين ضد القوة المغيرة إذ هطلت الأمطار وهبت العواصف فكفأت القدور وطرحت الأوعية وقتلت الخيول حتى تفرق شملهم .

بنو قريظة

وعندئذ رأى المسلمون أنهم لا يأمنون جانب تلك القبيلة اليهودية طالما هى تعيش بالقرب منهم إذ كان غدرها يؤدى حتما إلى تدمير المدينة فى أى وقت من الأوقات ، وفى الحال أمرهم النبى بالجلاء ، ولما رفضوا النزول على طلبه حاصرهم حصاراً شديداً حتى أجبرهم على الإذعان والتسليم دون قيد أو شرط ؛ غير أنهم عادوا وطلبوا أن يحكم فيهم « سعد بن معاذ » أحد الزعماء المشهورين وكان قد أصابته فى المعركة السابقة جروح شديدة مات على أثرها فى اليوم التالى . ومن سوء حظ تلك القبيلة أنها طلبت تحكيمه ؛ بالرغم مما عرف عنه من صعوبة المراس وقوة الشكيمة ؛ ولا سيما أن قلبه كان يضطرم سخطاً وموجدة عليها لغدرها الشائن فقضى عليها بقتل رجالها وسبى نسائها وأطفالها .

ولعل هذا الحكم يبدو الآن صارماً غير أنه لم يكن فى الواقع إلا شيئاً عادياً إذا قيس بقوانين الحروب التى كانت نافذة فى ذلك الحين .

ومذ منيت « مكة » بهذا الفشل المريع أخذ الدين الجديد ينتشر و يمتد

سلطانه فى شبه الجزيرة كما أسرعت القبائل تقلع الواحدة بعد الأخرى عن شركها وتدخل فى دين (الإسلام)[١] أفواجاً .

وثيقة النبى

وفى سنة ستة هجرية أعطى النبى (صلى الله عليه وسلم) رهبان دير « سان كترين » خصوصاً والنصارى عموماً وثيقة تعتبر آية من آيات التسامح والتساهل وهى تنص على رعاية حقوقهم وعلى منحهم الامتيازات والوفاء لهم بالعهود ، وقد ألزم فيها المسلمون الذب عن النصارى وحمايتهم من الأذى وصيانة كنائسهم وأسقفياتهم ، وألا يحملوهم بالخراج إلا ما طابت له نفوسهم ، وألا يخرجوا أسقفا من أسقفيته ، ولا راهباً من رهبانيته ؛ وألا يحولوا بينهم و بين هوى دينهم ، وألا يمنعوا حاجا من أداء فريضة الحج ، وألا يهدموا كنائسهم أو بيعهم ، وألا يدخلوا من مال كنائسهم فى بناء مساجدهم ، وألا يحملوا على الرهبان والأساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة ، وأن يعاونوهم فى إصلاح الكنائس والأديرة و يحفظونهم تحت جناح الرحمة و يكفوا عنهم أذية المكروه حيثما كانوا وحيثما رحلوا .

البعوث إلى الخارج

كذلك بعث النبى (ص) وفوده إلى إمبراطور الروم وملك الفرس يدعوهما إلى الإسلام فأحسن الأول استقبال الوفد بينما أساء الثانى معاملته ؛ كذلك أرسل وفداً آخر إلى أحد أمراء النصارى التابعين للدولة البيزنطية على مقربة من دمشق فسخط الأمير عليه و فتك به .

وقعة خيبر

وفى سنة سبع هجرية ثار يهود خيبر على المسلمين بيد أن النبى قمع ثورتهم فى الحال ولكنه أقرهم على أراضيهم وأملاكهم ودينهم ، على أن يدفعوا الجزية للمسلمين عن يد وهم صاغرون ، ثم عقد مع أهل مكة عهداً يسمح فيه للمسلمين بزيارة الكعبة و بموجبه أخلى السكان بلدهم حتى لا يحتكوا بالمسلمين ،

---

(١) الإسلام معناه السلام ؛ ولذلك جعل مقابلا للجهل وهو السفه . ويؤيد هذا المعنى تفسير الرسول (ص) للمسلم بأنه من سلم الناس من يده ولسانه . (المعرب)

و بعد ثلاثة أيام عاد كل إلى بلده ؛ ولـكن لم تـكد تمضى برهة حتى هجم أهل مكة مع بعض حلفائهم على قبيلة محالفة للمسلمين ، وفتكوا بعدد غير قليل منها ، فأنفذ الرسول إليهم فى الحال جيشاً قدره عشرة آلاف مقاتل ؛ وفيما عدا مناوشات طفيفة دخل المسلمون مكة دون مقاومة . وهكذا رجع «محمد» (ص) ظافراً منتصراً إلى البلدة التى آذته وعذبته وأصبحت الآن تحت رحمته ؛ ولـكنه مع ذلك نسى فى ساعة الظفر كل إساءة نالته وصفح عن كل أذى لحق به ؛ فأصدر أمره بالعفو العام عن أهل مكة[1] جميعاً . كذلك لم ينفذ حكم الإعدام إلا فى أربعة مجرمين كانوا قد حوكموا لجرائم ارتكبوها عند دخول القائد المظفر مدينـة أشد الناس لدداً فى خصومته : وقد حذا الجنود حذوه ودخلوا جميعاً مكة بسلام دون أن يتعرض أحدهم بأهلها . وقد قيل بحق : « لا يوجد فى تاريخ الفتوحات على وجه الإطلاق فتح يعدو هذا الفتح المبين » ؛ وعندئذ أخذ أصحاب الرسول يحطمون الأصنام من غير ما شـفقة ولا رحمة بمرأى ومسمع من المشركين ، فانبلج فجر الصدق وارتفع ذلك النداء الذى طالما ضحكوا منه وسخروا به يلمع فى الفضاء قائلا : « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً » ألا ما أحقر هـذه الأوثان التى لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرا . ! !

سنة الوفادة

وتعرف سنة تسع هجرية فى التاريخ الإسلامى بسنة الوفادة ، نظراً لقـدوم عدد كبير من الوفود من جميع أنحاء الجزيرة تطلب اعتنـاق الإسلام ؛ فـكان النبى (صلى الله عليه وسلم) يكلف كبار الصحابة وزعماء المدينة بإكرام مثواهم و إنزالهم فى ضيافتهم كما كان يردهم مكرمين إلى بلادهم مزودين بنفقات السفر ،

(١) لما قضى النبى (صلى الله عليه وسلم) طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الـكعبة فوقف محمد على بابها وتكاثر الناس فى المسجد فخطبهم ثم سألهم يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل فيكم قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ألا ما أجل العفو عند المقدرة ! وما أعظم هـذه النفس التى سمت فوق الحق والانتقام وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان . (المعرب)

والهبات التى كانت تمنح لهم حسب درجاتهم الاجتماعيـة وكثيراً ما كان يعقد معهم الوثائق التى تضمن لهم الامتيازات ، ويرسل معهم المعلمين لكى يفقهوهم فى فروض الدين ويطهروهم من رجس الوثنيـة ، وكان النبى (ص) دائماً يوصى هؤلاء الذين كان يرسلهم إلى مختلف الأمصار قائلا : « يسروا ولا تعسروا و بشروا ولا تنفروا ؛ وإنكم ستقومون على قوم من أهل الـكتاب يسألونكم ما مفتـاح الجنة فقولوا هو قول الحق وعمل الخير »[1] .

ولمـا توالت الوفود تترى على المدينة لاعتناق الإسلام وأحس النبى أن مهمته قد كملت ، وشعر بقرب منيته ، عزم على أداء فريضـة الحج . وفى الخامسة والعشرين من ذى القعدة سنة عشر هجرية (٢٣ شباط سنة ٦٣٢ م) سار يتبعه جمع زاخر إلى بيت الله الحرام فوصله فى ٨ ذى الحجة ، وقبل أداء جميع مناسك الحج اعتلى جبل عرفات ونادى فى الناس بهذه الـكلمات التى لا تزال مطبوعة على قلوب المسلمين كافة .

خطبة الوداع

« أيها الناس اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .

أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا .

وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

وإن كل ربا موضوع (أى مهدد) ولـكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون .

قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله .

---

(١) « شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » . (المعرب)

وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب .

أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه أن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب مفرد ، الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة بينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً : كتاب الله وسنة رسوله .

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه . تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم »[1] .

---

(١) ثم نزل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . (المعرب)

(٢ — مختصر)

وبعد أن عاد الرسول إلى المدينة وجه عنايته إلى تنظيم شؤون البلدان والقبائل وبعث عماله إلى الولايات لتعليم أهلها فروض الدين ، وجمع الزكاة ، والفصل فى المنازعات . وقد عرف فى أيام مرضه الأخيرة بهدوء البال ، وصفاء الذهن ، مما أعانه على أن يصلى بالناس رغم ضعف جسمه وانحلال قوته . وفى ذات ليلة قبيل وفاته ذهب إلى مقابر المسلمين حيث يرقد أصحابه القدماء فبكاهم واستغفر لهم وصلى عليهم ؛ ثم اختار أن يمرض فى بيت عائشة لقربه من الجامع وظل يصلى بالناس حتى شوهد فى المسجد لآخر مرة معتمداً على « على بن أبى طالب » و « الفضل بن العباس » . ولما فرغ من صلاته قال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقر منى ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقر منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء فهى ليست من شأنى ؛ ثم دعا للحاضرين وترحم على الشهداء ودعا للمسلمين إلى التمسك بفرائض الدين والتعاون على البر والتقوى ؛ ثم ختم كلامه بقوله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » . وعندئذ عاد إلى بيت عائشة [1] فأخذ يزداد فى كل لحظة ضعفاً ، وكأنه شعر بقرب المنية فتوجه إلى الله يدعوه الهون ؛ وبينما كان يبتهل ، ارتفعت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى ، وكان ذلك ظهر يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول عام ١١ هجرية والمصادف ٨ حزيران عام ٦٣٠م . وفى خلال السنوات العشر التى رأس فيها شؤون المسلمين ، تطورت أخلاق الشعب العربى تطوراً محسوساً إذ كان لبعث الوفود إلى مختلف القبائل والمدن للفصل فى الأمور

---

(١) وبعد وفاة خديجة تزوج النبى حسب العوائد العربية والطرق القبلية القديمة بعدة زوجات ليوحد العشائر المتنازعة من جهة ويميل النساء من الجهة الأخرى ، أما عائشة فهى بنت صديق الرسول الحميم أبى بكر الذى أراد أن يوطد دعائم هذه الصداقة بالمصاهرة الكريمة .

الداخلية والمنازعات القبلية ، تأثير وأى تأثير على القضاء على نظام الثأر القديم ، وتشجيع التجارة والصناعة . كذلك أدخلت فى تلك الفترة تغييرات ذات بال على نظام المعيشة ، وطراز الملبس ، ولا سيما الخاص منه بالنساء وأقلع الناس عن حرية الجاهلية الأولى واجتنبوا تعاطى الخمر والميسر ، وغدت الأخلاق تقاس بمعايير دقيقة صارمة وأفردت فى المنازل أجنحة خاصة بالنساء وهى عادة لم تكن مألوفة من قبل .